(١٧)

بيت القبلة
ومقيمو الصلة والصلاة

حديث الجمعة

١٣ جمادى الآخرة ١٣٨٠ هـ - ٢ ديسمبر ١٩٦٠ م

أشهد أن لا إله إلا من هو معنا.. أشهد أنه لا إله إلا من هو لنا.. أشهد أن لا إله إلا من فيه جَمعَنا، ومنه قديما أوجدنا، ومن قديم وجودنا فَرقَنا، وفي قديم فَرْقنا كان لنا، والذي إليه مردنا، وعليه دواما اجتماعنا.

لا إله إلا هو، موجودا منفردا لا يتعدد، خالقا موجدًا لا يتجدد، صمد في ذاته، صمد في صفاته، لا شريك له.. الحي القيوم...

ظهر بعبوديته، واختفى بربوبيته، وتنزه بألوهيته، ورحم بوحدانيته، فهو الواحد في ظهوره، والأحد في بطونه - الكائنات مظهره، والعلم مخبره، والقدس كرمه، والحرية رحمته، والعدل شيمته، والعوالم تجلياته، والكائنات آياته، والخلق للعلم بالمعروف كتبه.

إن الإنسان في خلقيته إنما هو كبداية ونواة للعوالم والكائنات والأكوان، وفي حقيته قديم الذكر ووجه الرحمن. فبشريته بداية آدم والآدمية، فيها بداية الكون والكونية، ونهايتها الساجد والمسجد والسجود للإنسان في الإنسان.

إن الإنسان هو الكينونة المعجزة للإنسان نفسه، وغير معناها ومبناها لا يعجزه، إذا قرأها قرأ القرآن، وإن أنطقها علَّم البيان، وإن أوجدها خلق الإنسان.. خلق الإنسان في جديده في الإنسان في قديمه في الإنسان في مستديمه.. دواليك.

فالإنسان هو الكائن الخالق، والإنسان هو الكائن المخلوق، هو الكائن الحق الخالق في وحدانيته مع الحق الخالق، فيه يقوم وبه يفعل، وهو الكائن المخلوق، والكائن الخلق بوحدانيته مع الكون، مخلوقا من وحدانيته مع الكائنات والعوالم المخلوقة.

فالإنسان حق بوحدانيته مع الحق. والإنسان خلق بوحدانيته مع الخلق.

فالإنسان خلق وخالق، إنما هو مربوب ورب. مربوب بوصفه إنسانا ورب بوصفه إنسانا. يقوم الرب فيه، حياة العبد فيه، ظاهراً بكونه، في كائن البشرية من وجوده، غائبا بمعناه من الربوبية في معناه.

إذا عرف الإنسان خصوصيته كإنسان، في هذا المعنى فطلبها فوجدها فقد تخلق بأخلاق الله. وإذا لم يتنبه إلى خصوصيته هذه فلم يعمل لها، ولم يتواجدها، فإنه في قابل له لا يجدها، ويعلم أنها كانت به وكانت له وأنه فقدها، بغفلته عنها،وبجهله بها. تأتيه الأيام بما كان منه يحيد، بما كان له كائنا، وكان في مكنته أن يكونه.. ولكنه حاد عن الطريق.. حاد عن السبيل.. أغمض العيون عما حوله من آيات الله.. وأغمض البصيرة عن أن تنعكس إلى ما فيه من آيات الله. فما نظر بخارجه متأملا فيفيق، ولا نظر بداخله مؤمنا فيصحو. وهو إن أفاق طلب الصحو، وإن صحا طلب الإفاقة، فطلب البعث، فبعث بما ملك، فيما يملك.. ومن أدرك البعث وطلبه، فقد طلب الحياة، وأدرك الحياة، فلحقته الحياة، بماء الحياة قطرة بعد قطرة، من ينابيع الأرض، من سلسبيل مدكر، من نهر صدق مصطبر، وأمدته ميازيب السماء بماء منهمر، فارتشف من عيون الأرض، وقد نظرته فعرفته، فأضافته فتواجدها وتواجدته، فخلقها وخلقته، وأحياها وأحيته، وجددها وجددته، فالحق عرفها والحق عرفته، فتعارف الحق إلى نفسه بنفسه في نفسه من الناس. وقع تحت نظر السماء فأعجبها فاصطفته، وبهرها فاختارته، ورضيها فاختبرته، فوفاها فارتضته، فمن حضرته رفعته، وإلى السماء أضافته وبأرجائها نشرته، فحنت الأرض إليه فبكته، وذكرته وما عرفته، وعرفته وما أكرمته، وذكره في أبنائها نشرته فطلبوه وطلبته، فتجدد في الأرض عيونا، وقام فيها أشجارا وغصونا، بذكره أزهر بستانها، وبذكره ارتفع بنيانها، وبذكره حيا وجدانها، وسماء ارتفع عنوانها، فتجدد شأنه ذكرا لله وضع، عن قديم ذكر بها لله رفع، وهكذا.. دواليك.. تقادم وتقادم المحدث، وتجدد وتجدد القديم. فكان الإنسان بسرمده أولية للخلق، وأولية للحق.

أما كيف يكون الإنسان نواة وأولية للحق؟ فإنه يعرف ذلك ويتحققه يوم يكون الإنسان نواة وأولية للخلق! ومتى يعرف الإنسان أنه أصبح نواة وأولية للخلق؟ يوم يتحقق الإنسان أنه كائن، وأنه نواة وأولية للكينونة. ومتى وكيف يتحقق الإنسان أنه كائن ويؤمن أنه نواة وأولية للكينونة؟ يوم يعرف الإنسان أنه في الله شيء، ويعرف أن الشيء حر في مشيئته، قادر بما أودع الله فيه من قدرته، سالك مسالك الطريق، إما إلى استقامة، وإما لما يقتضي الملامة. عرف نفسه فعرف أنه هُدي النجدين، وعَرف السبيلين.. إما شاكرا وإما كفورا.. إما باقيا وباقيا وباقيا إلى بقاء، أو فانيا وفانيا وفانيا إلى فناء.. وعلم أنه بقي إن بقي بقدر ما فني، وأنه فني إن فني بقدر ما بقي وأحسن الظن بربه فعلم أن

طريق الفناء في ربه وحقه هي طريق البقاء بربه وحقه، أما إذا لم يسر ولم يتحرك في طريق التطور فإنه لم يوجد بعد، ولم يدخل الحياة بعد.

أما حسن الظن الذي هداه النجدين إما شاكرا وإما كفورا، فيه يعرف أنه ما كان في طريق شكره وطريق كفره إلا في طريق واحد مآله إليه. عرف نعمة الله عليه فشكر وعرف جحود نفسه لله فكفر.. كفر بنفسه جاحدة لله وشكر لنفسه ذاكرة لله.. فشكر بقدر ما كفر وكفر بقدر ما شكر.

وبذلك كان الإنسان نواة للمعرفة وللعلم وللكتاب وللحياة. وعرف أن الله بعظمته لا يكفر به، وأن الله بوحدانيته لا يشكر له. إنما الإنسان هو فيه شكره وكفره. {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر}[1]. من شاء فليؤمن بنفسه ومن شاء فليكفر بنفسه.

هذا هو الدين وهذه هي الطريق إلى الدين، أو هذا هو لب الدين وهذا هو جوهر طريق الدين والسبيل إلى عين اليقين. من سمعه فوعاه فطلبه فداناه، فوجده فكان معناه. فهو في جنة الله وإلى جنان الله. ومن سمعه فقلاه، وأبعد عن المعنى معناه، وجانب بالمبتغى مبتغاه، فقد كفره فما تولاه، ولا كان له في دائم معناه، فله دينه وما ارتضاه.. وما كان هيكله ومعبده إلا مبناه، وما كان الشيطان إلا إياه، وما كان الجحود والكفر إلا معناه.

إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، كما أن الرحمن يسلك من الإنسان مسالك الروح منه. هو له أقرب من حبل الوريد، إنه معه الدم وما يجري فيه. إنه دمه وخلاياه وجوارحه وأوانيه، إنه ذاته ومبانيه، إنه عينه وغيبه وما يرضيه، إنه شهادته وما يستقيم فيه، إنه عبد الرحمن وما كان الرحمن ربا إلا به. وما كان العبد عبدا إلا بربه. فليس بعبد من لا رب له، وليس برب من لا عبد له. والله من ورائهما محيط وبوحدانيتهما قائم. إن الله قائم معروف بألوهيته بوحدانية الرب والعبد فيه، كما هو قائم معروف في ظهوره بوحدانية العبد بالرب فيه.

ليس وجها لله، وليس قائما بالله، وليس محلا لقيوم الله، وليس قائما في الحياة، من لم تكن معاني العبد والرب فيه، إلا معناه وإلا إياه.

هذا هو التوحيد ووحدته على ما جاء به محمد وأمته، وعلى ما عرَّفه محمد وشرعته، وعلى ما قامه محمد وبيته، وعلى ما قامته ذاته وكتابه، وعلى ما قامه كتابه وجمعه، وعلى ما قامه جمعه وأصحابه، وعلى ما قامه أصحابه وأمته، وعلى ما قامته أمته وإنسانيته، وعلى ما قامته إنسانيته ووجوده.

إن محمدا وربه على ما بينه وبين ربه من المعارج، إنما هو وربه ليسا إلا يدا رحمة الله، يدا رحمة إلهه. يحمل إلهه الكون بيد عبوديته ويُظل الكون بيد ربوبيته. إن محمدا بظاهره من حقيقته يد الله المقلة للكائنات والكون. وإن محمدا بباطنه من ربه يد الله المظلة للكائنات والكون. فهو رسول رحمته كما هو يد بطشته وظل عدالته.

هذا هو محمد عبده ورسوله الذي به نأتَمُّ وعليه نجتمع، وشتاته في أنفسنا بتجمعنا نجمع ونلتئم، فنتذاكره في أنفسنا لله ذاكرين، ونتواصاه في أنفسنا لله طالبين، ونتحققه في أنفسنا بالله مؤمنين، ونقومه بأنفسنا كتابا لله محيين متحققين. إنه الدين وأصل الدين، وبداية الدين، ونهاية الدين، وقيام الدين، وعين اليقين.

تلوك اسمه ألسنتنا ولا تقوم به عقولنا، ولا تتجدد به قلوبنا، ولا تتزكى به نفوسنا، ولا تحيا به جوارحنا، ولا تقوم به ذواتنا، ولا يتمثل به في الله رجاؤنا، فقد أصبح وربه ألفاظا لنا، وألفاظا عندنا، بعيدة كل البعد عن رغبتنا وآمالنا، في دنيا حياتنا.

إنا نتواصى معكم بالحق، في تواصينا بالحق فيه، وبحقه فينا، وبحق وجودنا فيه. نحن فيه على ما نحن، راجين أن يكون فينا على ما هو. إننا إن دخلنا في نفوس امتداده من بيننا، قبلة لصلاتنا، وبيتا لمآلنا، ورجاء لعملنا، ومنشودا من رحمة الله لنا، دخلنا هذه النفوس، من سفن نوح قيامه، ومن بيوت وضعه من موضوع بيوته، تعرضنا في زماننا لنفحات الله، ولنفحة رحمة الله لنا به.

إن فعلنا ودخلنا، فإن روح القدس، إن روح الله، إن الله يصطفي ممن دخل بيته. وروح قدس الله إنما تمتد فيمن اصطفي الله ممن دخل بيته. وما أمر بالصلاة في معناها من صلة العبد بربه إلا من كان من أهله، ومن كان في بيته ممن دخله من طائفيه.

إن من كان أهله ممن دخل بيته كان ولده، ومن كان ولده فقد انقضى يتمه وقام بدخول البيت إيواؤه نخرج من ضلال طريقه ونفسي مسعاه، إلى دار مستقره ونعيم مرتضاه. {وَأْمُرْ أهلك بالصلاة}[٢]، فما صلى من لم يكن له أهل. وما اهتدى من لم يدخل له بيت. وما سار من لم يركب له سفين. وما وصل من لم يتصل به. وما اتصل به من جهله. وما جهله من تجدد به وولد منه، ولذاته وروحه نسب. (المهدي ولدي)[٣]، فكان محمد آدمه أسوة، وكان محمد كلمة الله منه إليه فيه.

إن الدين في الارتباط باليتيم آواه الله، يتيما على معناه، يأويه يتيم الله. {أرأيت الذي يكذب بالدين}[٤] أعرفت أنه {ذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين}[٥]؟ إن الناس لا يزدادون بصلاتهم من الله إلا بعدا إن لم يكن لهم قبلة، فويل للمصلين لغير قبلة فما كانت الصلاة إلا صلة بين العبد

وربه، ولكن هؤلاء عن ذلك ساهون. إنهم عن صلاتهم ساهون. عن صلتهم ساهون. عن طلبها ساهون. عن العمل بها ساهون. عن السعي إليها ساهون. عن ضرورة قيامها ساهون. وهم مع ذلك لم يخرجوا عن نظر الشهيد فيهم. فالإنسان على نفسه بصيرة وإن أبدى معاذيره. ولكنهم يجهلون أو يتجاهلون وإن أدوا أشكالها فهم المراؤون. إنهم يراؤون أنفسهم، ويراؤون الناس، ويراؤون الله، وإن الله مرائيهم بفتنته، وإن المؤمنين مرائيهم بحكمته، وإن الله صابر عليهم، حليم بهم، والمؤمنون صابرون مع صبره. يمكرون على الله ويمكرون بالناس، والله يمكر بهم يمدهم في طغيانهم يعمهون عنه فيهم، فيكونون العماء فيه فيعمهون.. يمد لهم في الضلالة مدا فيمنعون الماعون، وعن سبيل الله يصدون، وبالضلالة يعملون، وعن موائد مساكين الله ممدودة يحولون. يضلون أنفسهم ويضلون بها الناس من الضالين. ضل سعيهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة لأن الله أضل أعمالهم، ومن يضلل الله فلن تجد له وليا مرشدا، ومن يضلل الله فما له من هاد، فمن يهديه غير الله وبعد الله وهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ولو شاء لهدى الناس جميعا ولكن سبقت كلمته، فريق للجنة وفريق للسعير لقيام ناموس الوجود.

اللهم لا تجعلنا من أهل الضلالة، واجعلنا من أهل الهدى والهداية. اللهم إنا إليك فوضنا أمرنا فاجعله اللهم بك ميسرا. اللهم إنا عليك توكلنا فأقلنا من عثرات أنفسنا. اللهم إنا بك آمنا فأفننا اللهم عنا، وأبقنا اللهم بك لنا عبادا لك لا شريك لك.

اللهم إن محمدا تابعنا وحيينا، وأسوته وكتابه أقمنا وابتلينا. اللهم فاهدنا به وقومنا. فإن محمدا كتابه تواصينا فما عرفناه إلا عبدك فابعثه فينا وجددنا فيه فما آمناه إلا كتابك، وما عرفناه إلا وجهك، وما وردناه إلا حوضك، وما طعمناه إلا رزقك، وما رويناه إلا ماءك، وما سعدناه إلا رحمتك، وما قمناه إلا حقك.

اللهم فيه فأدخلنا - اللهم فينا فأدخله، اللهم بك فينا فأقمه، وفيه بك فأقمنا. اللهم إنا قد علمنا به عنك وحدانيتك فوحدناك عبادا لك. لا نحن ولا هو ولا أنت.. إنما أنت هو نحن وهو وأنت.. لا إله إلا إيانا ولا موجود إلا أنت. لا معبود غيرك ولا موجود سواك. قائما على أنفسنا أقرب إلينا من حبل الوريد.

اللهم إنا رأينا أنفسنا على ما أنشأت.. وأقمناها فيما أردت.. ووجهناها إلى ما هديت. اللهم فتقبلها على ما وعدت. وارحمها على ما بمحمد أظهرت. واجمعها على ما قدرت. وانشرها على ما به أكرمت ومننت.

اللهم إنا منك. اللهم فاجعلنا منك وإليك. اللهم ارزقنا وحدانيتك وعلمنا وحدانيتك، وأسلكنا وحدانيتك، وقومنا وحدانيتك، واهدنا وحدانيتك.

نشهد أنه لا إله إلا أنت وأن محمدا عبدك ورسولك.

هذا هو الدين نسأل الله أن يجعل لنا ولكم به اليقين.

مصادر التوثيق والتحقيق

١ سورة الكهف - ٢٩

٢ سورة طه - ١٣٢

٣ حديث شريف: "المهدِيَّ رجلٌ مِنْ ولَدِي، وجْهُهُ كالكوْكَبِ الدِّرِّيِّ". أخرجه الطبراني.

٤ سورة الماعون - ١

٥ سورة الماعون – ٣:٢